

أزمة الهوية في الرواية النسائية الجزائرية المعاصرة "بوابة الذكريات" لأسيا
جبار أنموذجا

**The Identity Crisis in Contemporary Algerian Women's
Novels: 'Bawwabatu Ad-Dhikrayat' (The Gate of Memories)
by Assia Djebar as a Model**

حبيبة قيرش

جامعة البليدة 02 علي لونيسي(الجزائر)

guirecheg@gmail.com

مخبر الدراسات الأدبية و النقدية

أ.د خليفة قرطي

جامعة البليدة 02 علي لونيسي(الجزائر)

تاريخ النشر: 2025/06/07

تاريخ القبول: 2024/12/20

تاريخ الإرسال: 2021/08/24

الملخص:

تحاول هذه الدراسة الكشف عن أسباب تشظي هوية المرأة المبدعة من خلال رواية "بوابة الذكريات" لأسيا جبار، ومحاولة وضع هذه الهوية في سياقها التاريخي والوجودي لاسيما في مرحلة الاستعمار الذي عاشته الجزائر، إذ عاشت المرأة تداعيات فرض سياسات محو الهوية وسياسة الإدماج، الاحتواء، والتفرقة وهو ما انعكس على الأنثى وسبب عقدة الانتماء، وأثر ذلك على علاقتها بالجسد وبالأخر حيث تعيش الأنثى اغترابها الداخلي وهوسها بالتعويض والبحث عن الإشباع، وبهذا يكون الإشكال المطروح هو: - كيف استطاعت المرأة الجزائرية المبدعة في ظل الواقع المأزوم الذي عرفته الجزائر خلال فترة الاستعمار أن تؤسس لهويتها في سياق وجودها الفاعل داخل التحولات الدينامية وفي علاقتها مع الآخر؟
الكلمات المفتاحية: الرواية الجزائرية المعاصرة-الهوية -الآخر-بوابة الذكريات.

The Identity Crisis in Contemporary Algerian Women's Novels: '*Bawwabatu Ad-Dhikrayat*' (The Gate of Memories) by Assia Djébar as a Model:

This study attempts to uncover the reasons behind the shattering of the creative women's identity through the novel '*Bawwabatu Ad-Dhikrayat*' (The Gate of Memories) by Assia Djébar. It also seeks to contextualize this identity within its historical and existential framework, especially during the period of colonization experienced by Algeria. Women faced the repercussions of imposed policies aimed at identity annihilation, integration, containment, and segregation. This had a profound impact on them, causing a sense of belonging complex, which affected their relationship with their own bodies and with the other, resulting in an internal alienation and a pursuit of fulfillment. From this standpoint, the following question is raised:

How did creative Algerian women succeed in establishing their identity within the framework of their active involvement in dynamic changes and their relationship with the other?

Keywords: Contemporary Algerian Novel, Identity, the Other, *Bawwabatu Ad-Dhikrayat* (The Gate of Memories).

مقدمة:

لفت السرد النسائي الجزائري الانتباه إليه بشدة لما يمتلكه من مقومات حديثة استطاعت أن تثبت جدارة الحضور النسائي في المشهد الثقافي الجزائري، ولهذا فتحت الروائية/الكاتبة مسألة وجودها على الساحة الإبداعية بدءاً من مسألة جنسيتها في رصد الرجل لإبداعها في زخم تداولته أقلام المبدعين/الروائيين لتطرح وعي هذه الكتابة في نصوصها الحائرة، التي تشظت فيها الذات الأنثوية عبر مواضيع حساسة لا يستسيغها الكاتب/المبدع بقلمه لعدم وعيه بأنثاه.

وحتماً فالرواية هي محور العلاقات بين الذات والعالم، بين الواقع والحلم، ولهذا فالنص النسائي سيشارك الآخر همومه الاجتماعية، والإنسانية والسياسية، وهي بهذا الخطاب الأنثوي تؤسس لإستراتيجية الخصوصية بالنظر إلى لغته وأسلوبه وموضوعاته وإيديولوجيته، وهذا لا يعني طبعاً النظر إلى النص النسائي من باب ضيق، بل كمجال إبداعي أنتجته ذات مختلفة، وهذا الاختلاف لا يعزو إلى نقص ذاتي، بل إلى رؤيا ووعي مختلفين ومكملين في الوقت نفسه لرؤيا الآخر.

والحديث عن التجربة الإبداعية النسائية، حديث يشوبه الارتباك والقلق لأنه مرتبط بحقيقة المجتمع قبل كل شيء، فالإبداع فن، ومن أهم قوائم الفن بعد الموهبة: "الحرية"، وعنصر الحرية يبدو عنصر غير واضح الملامح في الأجواء العربية خاصة، ولأن الكتابة قبل أن تكون تركيباً لغوياً، فهي تعبير وبوح،

وهنا تتعدد المسألة أكثر، حين تأخذ الكتابة منحى البحث عن الخلاص، من الوضع الاجتماعي الذي تعاني منه المرأة وهو ما يؤكد تلك الحقيقة، التي تُخفي وراء كل كتابة قضية، وحين نقول قضية نقصد ذلك الوجد الحقيقي الذي يشعر كاتبه في نفسه، ويراه في غيره، وبالنسبة للمرأة، فإن وجعها الأول هو البحث عن قواعد إرساء فكرها بشكل مستقل، ووجعها الثاني هو فقدانها لكيانها ولهويتها. وقد أضاعت التجارب الإبداعية النسائية (السردية)، تساؤلات مازالت معقدة، متقدة، تتحرك بين شرعية الهوية والتهميش، ومازال عدد من النقاد يعلن تبرمه من هذا الأدب، إلا أن موكب الأدب النسائي ظل يحث الخطى ويواصل السير في بحثه عن تقنيات مذهشة تمكنه إثبات جدارة حضوره في المشهد الثقافي، وهو سير متأن، ينظر بكثير من الحذر لحركة النقد، وبكثير من الاعتزاز للذاكرة الإبداعية الجزائرية، ومن أهم هذه التساؤلات التي دفعت عجلة هذا البحث هي:

-كيف استطاعت المرأة الجزائرية المبدعة في ظل الواقع المأزوم الذي عرفته الجزائر خلال فترة الاستعمار أن تؤسس لهويتها في سياق وجودها الفاعل داخل التحولات الدينامية وفي علاقتها مع الآخر؟
-كيف كانت الكتابة النسائية بداية من العنوان وسيلة لاستعادة الهوية والالتحام باللغة الأم؟

1. أزمة الهوية بداية من العنوان:

يشكل العنوان مدخلا أساسيا في دراسة النص الأدبي، وهو يجبر المتلقي على قراءة العمل، بل يثير لديه الحدسية والفضول الذين يخضعانه لاستكمال قراءة العمل، ويثير في ذهن المتلقي تساؤلات عدة لا يستطيع الإجابة عنها ما لم يقتحم أغوار النص، وهو من أبرز العتبات التي تواجه المتلقي في طريقه للكشف عن النص وعوالمه إن لم يكن أولها؛ ومن الجلي عن البيان أنه العتبة الأولى: «فهو يعد أول إشارة وعلامة لغوية يتلقاها المتلقي في التواصل والتفاعل معه»⁽¹⁾

وقد حاول جيرار جينيت تقديم تعريفا أكثر دقة للعنوان فقال: «مجموعة من العلامات اللسانية من كلمات وجمل وحتى نصوص قد تظهر على رأس النص لتدل عليه وتعيّنه ويشير لمحتواه الكلي، ولتجذب جوهره المستهدف»⁽²⁾ فالعنوان هو الذي يتضمن بداخله العلامة والرمز، وتكثيف المعنى؛ إذ يحاول المؤلف أن يثبت مقصده برمته بوصفه النواة المتحركة التي خاط عليها نسيج نصه إلى جانب أنه علامة سيميائية، تمارس التدليل وتتموقع على الحد الفاصل بين النص والعالم لتصبح نقطة التقاطع الإستراتيجية

¹: إبراهيم عبد الرحمن إبراهيمي: عتبات النصفى زاوية الثلاثة لمحمد البشير الإبراهيمي دراسة تداولية مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، العدد 1، يونيو، 2013، ص 32.

²: عبد الحق بالعباد: عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، دار العربية للعلوم، ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2008، ص 67.

التي يعبر منها النص إلى العالم والعالم إلى النص، لتتفي الحدود الفاصلة بينهما، ويحتاج كل منهما إلى الآخر، إنه بنية كتابية تعلو النص وتتعلق معه دلالياً.

إنَّ أهمية العنوان تكمن فيما يثيره من تساؤلات قد لا نجد لها إجابة إلا مع نهاية العمل فعلاقة العنوان بالنص علاقة معقدة إنه مدخل إلى عمارة النص، وإضاءة بارعة لممراته المتشابكة، إذ يطرح العنوان العديد من الإشكاليات وهذه الأخيرة تقتضي بذل مجهود من أجل تحليله. وبهذا المعنى تتعدد طبيعة العنوان ووظائفه فأحياناً يكون مؤشراً وحافزاً وبؤرة مركزية مضيئة، وأحياناً يكون هاوية سحيقة والسؤال الذي يهم على الخيال فذاتية المتلقي تنصب أولاً على العنوان الذي يمثل أعلى اقتصاد لغوي.

1.1.. مفهوم العنوان لغة:

أما كلمة عنوان فيتم النظر إليها في القاموس المحيط على النحو التالي: «عَنْ الشَّيْءِ يَعْنُ وَعَنَّا وَعَنَّا وَعَنُونَا: إِذَا ظَهَرَ أَمَامَكَ اعْتَرَضَ. وَعنوان الكتاب سَمِّيَ لِأَنَّهُ يَعْنِي لَهُ مِنْ نَاحِيَتِهِ. وَعَنْ الكتاب وَعَنَّه وَعَنُونَهُ وَعَنَّا: كَتَبَ عَنَوَانَهُ»⁽¹⁾.

وفي مختار الصحاح نجد تقارباً بين العنوان والمعاناة: «عنوان الكتاب، والاسم العنوان. والمعاناة: المقاساة. يقال: عاناه، وتعناه، وتعنى»⁽²⁾ ولا يبتعد المعجم الوسيط عن القاموس المحيط كثيراً، ولكنه يضيف بعض الأمثلة، فيقول: «عَنْ لَهُ الشَّيْءُ عَنَّا وَعَنُونَا: ظَهَرَ أَمَامَهُ واعترض. ويقال: لا أفعله ما عَنَّ نجم في السماء. ويقال عَنَّ لِي الأمر، وَعَنَّ بفكري الأمر. وعنوان الكتاب، كتب عنوانه، والعنوان ما يستدل به على غيره ومنه عنوان الكتاب. وفي التنزيل العزيز: وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ حَمَلَ ظُلْمًا»⁽³⁾.

2.1. مفهوم العنوان اصطلاحاً:

العنوان هو الخطوة الأولى من خطوات الحوار مع النص، هو مجموعة من العلاقات اللسانية قد ترد طالع النص لتعيينه وتعلن عن فحواه، وترغب القراءة فيه. وهو من أهم الأسس التي يركز عليها الإبداع الأدبي المعاصر، لذلك تناوله المؤلفون بالعناية والاهتمام خاصة في الإنتاج الشعري الحديث والمعاصر، كل هذا دفع إلى التفنن في تقديمه للمتلقي، حتى يكون مصدر إلهامه، وحافزاً للبحث في أغوار هذا العمل الفكري، وللعنوان من الناحية الاصطلاحية عدة معانٍ لخصها "محمد فكري الجزار فيما يأتي:

¹: الفيروزآبادي، قاموس المحيط، ط2، المطبعة الحسينية، 1344هـ، ص122.

: الرازي، مختار الصحاح، دار التنوير العربي، بيروت، ب ت، ص192.

: إبراهيم أنيس، وآخرون، المعجم الوسيط، ط4، 2004، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، 632-633.

« ا/العنوان: القصد والإرادة - ب/العنوان: الظهور والاعتراض - ج/العنوان: الوسم والأثر. »⁽¹⁾
القصد: يقال عنيت فلانا عنيا أي قصدته. ومن تعني بقولك أي من تقصد.
الإرادة: يقال عنيت فلانا بالقول كذا: أردت. ومعنى كل كلام ومعناها ومعنيته: مقصده الظهور: عن الشيء يعن عنا وعنوانا واعتن: اعترض وعرض.
الوسم: أو السمة أو العلامة. قال ابن سيده: وفي جبهته عنوان من كثرة السجود أي أثر الأثر وبغض النظر عن كل تلك المعاني التي اكتسبها العنوان فهو اصطلاحاً: «مقطع لغوي أقل من الجملة يمثل نصاً أو عملاً فنياً»⁽²⁾

وهو: « وحدة اتصال ممتازة، ومفتاح دلالي مهم، فهو من جهة وحدة معرفيه مستقلة، لها كيائها الخاص ودلالاتها التي تعبر عنها ومن جهة أخرى سمة وظيفية مرتبطة بأدائها لعمله تجاه النص الذي تتعالق معه »⁽³⁾

بناءً على ما سبق يمكن القول إن العنوان بوصفه بنية كتابية تعلو النص وتتعلق معه دلالياً وهذه سمة تصب في توفير طاقة المتلقي نحو النص. فالعنوان في النص القصصي وفي غيره يعد جزءاً عضوياً منذ الوهلة الأولى بما يمكن أن تطرحه من دلالة البنية السردية والمغزى الذي تهدف إليه. وعلى الرغم من أن العنوان يقوم على حرية اختيار الدوال وتركيبها فإنه يراعي دلالة النص المعنون؛ لأن العنوان: «يؤلف على مستوى التعبير مقطعاً لغوياً يعلو النص تتحكم به قواعد سيميائية تعمل على بلورة موضوعاته وتحديد رؤيتها وترميز دلالاتها في مفردة أو عبارة ذات أجزاء ألفاظ مفردة (تتعاقب لأداء) وظيفة تأسيس أو وجهة نظر من التركيب العام للنص»⁽⁴⁾

محمد فكري الجزار: العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ط، 1998، ص 21-22.¹
 نعيمة فرطاس: سيميائية العنوان عند الطاهر وطار رواية الولي يعود إلى مقامه الزكي أنموذجاً، مجلة الثقافة، القدس، العدد 21، أكتوبر، 2009، ص 85.

باسمة دموش: عتبات النص، مجلة علامات، جدة، المجلد 16، مايو، 2007، ص 39.³

محمد عبد الوهاب: ثريا النص، مدخل لدراسة العنوان القصصي // 10 (الموسوعة الصغيرة) 396، دار الشؤون الثقافية العامة، ط 1، بغداد، 199.

كما تتجلى أهمية العنوان فيما « يثيره من تساؤلات لا نلقى لها إجابة إلا مع نهاية العمل الأدبي، فهو يفتح شهية القارئ للقراءة أكثر من خلال علامات الاستفهام في ذهنه، فيضطر إلى دخول عالم النص بحثاً عن إجابات لتلك التساؤلات»⁽¹⁾

3.1. أزمة الهوية في عنوان رواية (Nulle part dans la maison de mon père):

إن للعناوين عند آسيا جبار ميزة خاصة، وبهاء متفرد، فهي توليها عناية خاصة، لا تقل عنايتها بنصها، إنها تحكي المكان والزمان والمؤنث المتكلم والمخاطب في آن واحد، ولذا يجب على المترجم أن يكون ملماً بكل ذلك، وبعض ذلك قد يكون تقصيراً في حقها، وهنا تبدأ محنة المترجم، محنة تجاوز العتبات إلى ضفة أخرى، أو بالأحرى انزياح المعنى الحقيقي إلى معنى مغاير يختلف تماماً عن المعنى المراد.

لقد تميزت أغلب عناوين روايات آسيا جبار وقصصها وكتبها الأخرى بأنها عتبات غامضة ومكتنفة، هي رحلة عبر نسق مميز من العناوين، تختاره الكاتبة بحذر لأنه اختزال لمدلول النص الذي تكتبه وانعكاس له، وبالعودة إلى الرواية محل الدراسة والبحث نجد عدة تساؤلات تتبادر إلى ذهن القارئ من أول قراءة له للعنوان فقد اختارت الكاتبة آسيا جبار عنواناً مبهماً يحتاج للتوقف مطولاً أمامه، فهو عتبة عالية صعبة الولوج، عتبة تعتبر بمثابة المؤشر Indice يحيلنا على البنية المحتملة، ويعمل كبنية متقدمة Pré-structure توجي بالوضع الذي يكون عليه النص، عتبة النقائض، متعددة الإيحاءات connotation، حيث عبارة Nulle part تحيل في قراءة أولى إلى نفي الحدود المكانية، وبالتالي الاغتراب والنتياهان وفقدان المعالم المكانية خصوصاً، كما يحيل هذا الضياع إلى فقدان معالم الهوية والانشطار بين عالمين وظيفتين ولغتين، أما جملة dans la maison de mon père فإنها تحيل إلى دفء البيت الأبوي، وأمانه واستقراره، كما يحيل إلى الهيمنة الأبوية (الباترياركية) التي تتطلب الطاعة والخضوع، واعتبار المرأة كائن قاصر يحتاج إلى الوصي، كما تحيل إلى حدود البيت الحسية والرمزية، فكيف بالإمكان الجمع بين كل هذه النقائض، أو الثنائيات المتضادة في ترجمة مناسبة، تحافظ على معنى العبارة وسرها، تجليها واستتارها، كما تحكي حقيقة الساردة، وهي تمرر رسالتها كاملة عبر هذه العتبة.

¹: عبد القادر رحيم: علم العنوان دراسة تطبيقية، دار التكوين للتأليف والترجمة والتوزيع، ط1، دمشق، سوريا، 2010، ص45.

تفتح آسيا جبار كتاب ذكرياتها، لتحكي وتقول كل شيء تصرّحاً وتلميحاً، لكنها تصوغ عتبة روايتها، عتبة صعبة الاجتياز، شاهقة العلو، لكي لا تكون سهلة المنال، هاهي تضع السرّ كله في العنوان. Nulle part dans maison de mon père عنوان يحمل كل معاني الانفتاح على الآخر (الرجل)، ويحمل في ذات الوقت كل النقائض/المفارقات paradoxes.

إن هذا العنوان يعكس مدى تمزق ذات الكاتبة، من سنّ الطفولة حتى سنّ البلوغ الجسدي، والنضج الفكري، فهي ضائعة بين لغتين، إحداها تتقنها، وتكتب بها، والأخرى تعشقها، وتتمنى لو تستطيع الكتابة بها ذات يوم، ولغة ثالثة هي مزيج بين الأمازيغية والموريسكية، لغة أخرى تنتفس بها. إن تشظي هوية الكاتبة بين أب فرنكفوني التكوين، حريص على الحداثة، وأب يتصرف بتقليدية، وبضيق أفق، وكيف اجتمعت شخصيتان متناقضتان في شخص واحد، حينما يقتضي الأمر مسألة (العذرية) فإن الذكر يتخلّى عن كل ثقافته المتحضرة، ليتصرف كذكر، والأب المعلم الذي يرفض أن يقلّ رجل فرنسي من احترامه تجاهه تقول: «-المعلم العربي؟ صرخ الفرنسي ذو الأبوة الحساسة. وسرعان ما راح يوجه الكلام لأبي بلهجة عنيفة: -أنت هناك، لقد أبكيت ابني؟

-أنت هناك، ردّ أبي سريعاً من تخاطب في نظرك؟ راعيا ربما؟ أم عبدك؟
انتفض أب الطفل (فجأة كفّ هذا الطفل عن البكاء) وقال لأبي بفرنسية شعبية للغاية: -أتتجراً...؟
...وضعت المحفظة جانبا، ووقفت قبالته. بيدي نزعته سريعا شاشي الذي سلمته لأحد تلاميذي. تقهقر المستفز: أدرك فجأة بأني أطول منه بخمسة عشر سنتمترا، أو أنه لاحظ ببساطة بأن نظرتي لا تطرف! فتردد.»⁽¹⁾

فهو يتصرف مع ابنته كأبي أب لم يتلق أي تكوين سوى ثقافة موروثية براترياركية سائدة، ومنه فإن هذا الشرح، والتشظي، ظل مغمورا في لا وعي الكاتبة، حتى جاءت لحظة الكتابة، والبوح، لتطفو على السطح كل ذكريات الحوادث التي ساهمت في تشظي هويتها، ويكون بذلك العنوان عبارة عن (بلا هوية في بيت أبي)، والرواية هي محاولة للبحث في أسباب تشظي هذه الهوية النسائية بالخصوص، والتي ساهمت بوضوح في الانكسارات التي عاشتها الكاتبة في مرحلة النضج والبلوغ.

يفشي العنوان كما المتن بشكل فني الكثير من حدّة وقلق الشعور الذاتي بالمكان (الحيز)، يشتمل المكان على قيمة دلالية تتجاوز الكل المادي أو مفهوم الفضاء الجغرافي الثابت والقار الذي يستقر فيه الإنسان في العالم الخارجي، المرتهن بطبيعة الأحداث والتجارب، والوقائع الزمنية الحاسمة في كل حالاته

: آسيا جبار: بوابة الذكريات، تر محمد يحياتن، سيديا وزارة الثقافة، 2007 ص 55-56.¹

الحقيقية والمتخيلة، ليخرج إلى دلالة معنوية معادلة للصوت والكلام (المكان=الصوت)، فوجود المكان يقابل دلالة الصوت وغياب المكان يقابل دلالة الصمت، والصوت هنا يدل على حقيقة وجود الإنسان وحضوره الفعلي الذي يستدعي حضور مواقفه حيال الحوادث والتجارب التي يمر بها، فهل تستطيع آسيا أن تتكلم في حضور الأب (الرجل)؟.

2. أزمة الهوية:

وردت الهوية في قاموس مصطلحات الأدب بالعديد من المعاني: «الهوية في الأدب هي سمات مميزة للكاتب، وتتطبع بطابعه، وتحدد مسار عمله ومشخصات إنتاجه، والأديب يعرف بهويته الأدبية، والأدب يعرف بسمات الأدباء وهوياتهم»⁽¹⁾ كما ارتبط معنى الهوية هنا بالأدب عامة والأديب خاصة حيث يصبح أدب هذا الأخير، هو هويته التي تميزه عن غيره.

1.2. الهوية لغة:

والهوية لغة من هوى، وهو: «العشق ويكون في الخير والشر. ويأتي بمعنى سقط، يُقال هوى فلان: سقط من علو إلى أسفل. ويقال للبئر العميق: "الهوية" من هوى.»⁽²⁾ وهذا ما يأخذ المفهوم من الجانب اللغوي إلى الأمر البعيد الغور، الذي يتشوق الإنسان إليه ويعشقه، الأمر الذي يجعل الشخص يتوجه نحوه بشكل اضطراري.

2.2. تعريف الهوية اصطلاحاً:

أما على الصعيد الاصطلاحي، فالهوية هي: «الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق.»⁽³⁾ فهي ما يعرف الشيء في ذاته دون اللجوء إلى عناصر خارجية لتعريفه، ويستعمل أيضاً للدلالة على الجوهر والماهية. وعند المتصوفة هي الحق المطلق، الذي يحتوي كل الحقائق احتواء النواة على الشجرة في الغيب المطلق.

أما في المنطق فإن هذه اللفظة تشير إلى معنيين:»

- 1-التساوي أو التشابه المطلق بين كمين أو كيفين، وهنا تعني التوافق.
- 2-أن يكون الشيء ثابتاً لا يتغير بما يعتريه أو يعتري ما يحيط به، وهنا تعني الثبوت.

¹: محمد محمد داود، معجم التعبير الاصطلاحي في العربية المعاصرة، دار غريب للطباعة، القاهرة، مصر، د.ط، ص38.

²: انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة هوى.

: الجرجاني علي بن محمد، التعريفات، بيروت، دار الكتاب اللبناني، الطبعة 1، الصفحة 278.

وتقول "الموسوعة الفلسفية العربية" هي كلمة مولدة اشتقها المترجمون القدامى من الـ "هو" لينقلوا بواسطتها إلى العربية كما يقول - الفارابي - المعني الذي تؤديه كلمة "هست" بالفارسية، وكلمة "أستين" باليونانية؛ أي فعل الكينونة في اللغات الهندوأوروبية الذي يربط بين الموضوع والمحمول، ثم عدّلوا عنها ووضعوا كلمة "الموجود" مكان الـ "هو"، والوجود مكان "الهوية"، ومع ذلك فقد فرضت كلمة الهوية نفسها كمصطلح فلسفي يستدل به على كون الشيء هو نفسه⁽¹⁾.

وهذا المفهوم كما نراه يأخذ أبعادًا تتعلق بالكشف عن حقائق الأشياء على الرغم من اختلاف الأدوات والأنساق المعرفية التي تقوم بتعريفه، وهو يسعى إلى تعريف حقيقة الموجود، ولم يكن طوال تاريخه المفاهيمي يحاول الإجابة عن حقيقة الذات الشخصية أو الاجتماعية للإنسان، باعتبار الهوية كانت مشخصة في إطار مجتمعات تتماثل فيما بينها من خلال الانتماء إلى بوتقة محدّدة كالدّين أو القبيلة أو العائلة أو القرية، ولم تطرح إشكالية الآخر إلا بحدود ضيقة.

ولكن مع التغييرات التي طرأت على المجتمعات الإنسانية ابتداءً من عصر النهضة الأوروبية، تصاعد هذا المفهوم بمعزل عن استخدامه الأولي، حيث بدأت، تظهر معالم الهوية الإنسانية للأفراد، وهذا الأمر خبأ مشكلة الهوية في باطن النزعة الفردية، فأخذ الإنسان يسأل عن أنه، فهذا الفرد الذي خرج من بوتقة القسر الاجتماعي، فرّح بحضوره في العالم، وأخذ يسأل كيف يمكن التفكير في وحدة الأنا في الزمان؟ هل أنا الشخص نفسه الذي كنته قبل عشرين سنة؟ لقد اقترح لوك حل إشكال الهوية الشخصية بفكرة الذاكرة: إذا كنت الشخص ذاته الذي كان قبل عشرين سنة، فلأنني أذكر مختلف المراحل التي مرّ بها وعيي أو شعوري. وهذا الوعي سرعان ما أخذ يسأل عن هوية هذا الحضور الإنساني، فإذا كنت موجودًا، هل أنا معزول عن بيئة محدّدة، صاغت هذا الوجود، وهذا الأمر كان أكثر إلحاحًا في المجتمعات التعددية، التي تشكّل تحدّيًا للذات، ولعلّ هذا ما جعل الولايات المتحدة الأمريكية المكان الأنسب لظهور مفهوم الهوية على يد أريكسون عام 1933.

من هنا، أخذ ينمو هذا المفهوم في العلوم الاجتماعية والإنسانية، ويأخذ إطارًا مختلفًا عن البيئة التي نشأ فيها، وبدأ يأخذ معنى الانتماء إلى سياقات محدّدة ترسم معالم الإنسان الفردي والمجمعي. ولكنّ العاملين عليه انقسموا إلى فئتين، فذهب بعض الباحثين إلى القول بالشكل الميتافيزيقي حيث تقدم الهوية باعتبارها تصورات لنماذج مثالية، بينما ذهب البعض الآخر إلى تحديد سوسيولوجي يرى الهوية تتغذى

¹ : الموسوعة الفلسفية العربية، بيروت، معهد الإنماء العربي، مادة الهوية.

بالتاريخ وتشكل استجابة مرنة تتحول مع تحول الأوضاع الاجتماعية والتاريخية، وبذلك تحقق نسبةً تتغير بتغير حركة التاريخ وانعطافاته.

وجاء في مفهوم الهوية من المنظور الاجتماعي: «بأن الهوية مركب مبني ومعترف به اجتماعيا وذلك من دلالات الذات الممتدة من عضوية الفرد كالطبقة والعرق واللغة...»⁽¹⁾

3.2. أزمة الهوية في الرواية:

من خلال ما سبق في تعريف الهوية نجد أنها تقوم على أسس تمثلت في الطبقة، العرق، الدين، اللغة وهم المكونات الأساسية للهوية الإنسانية، والذي افتقدته جميع نساء الضفة الجنوبية في بيوت آبائهم مما جعلهن يحسدن النساء الفرنسيات اللواتي كن يتمتعن بها، وخاصة عندما يتعلق الأمر بحياتهن الشخصية وحريتهن في اتخاذ قراراتهن بمفردهن، وهذه الحرية المفقودة جعلت المرأة إنسانا قاصرا وعاجزا لا يستطيع التفكير أو اتخاذ أي قرار يخص حياتهن الشخصية، وهذا طبعا في نظر مجتمع ذكوري متسلط ورث ظلمه وقهره من عادات، وتقاليد أجداد قديمة كان عذرم في ذلك الجهل، والفقر والتفكير المحدود، والمتعلق بشيء واحد ووحيد هو (عذرية المرأة) وكيف يحافظ عليها بشتى الطرق دون التفكير في هوية ونفسية المرأة وما يترتب عنه من آثار سلبية تضر بها وتفقد توازن النفسي فيصبح الرجل (حارس الحريم) في نظر المجتمع، ونظر المرأة.

فتحت آسيا جبار بوابة ذاكرتها لتعود مسافة سبعين سنة إلى الوراء مجهدة نفسها في تذكر الأحداث التي بقيت موشومة في ذاكرتها، ولتقوم أيضا بمساءلة المجتمع والثقافة المهيمنة عليه هذا المجتمع الذي ظل لقرون ينظر إلى المرأة نظرة دونية ويعتبرها كائن ناقص لا يستطيع اتخاذ أي قرار بمفرده، وحاولت من خلال هذا البوح إعادة هندسة وعيه الذي عانت المرأة من هيمنته وسلطته طوال سنين، لكن هذا الفعل لم تستطع آسيا القيام به إلا بعد أن تخلصت من السلطة الرمزية التي كانت تكبل حريتها وهو الأب تقول: «شمة مشهد حصل في فناء العمارة الخاصة بالمدرسين ظل عالقا في ذهني كحرقه، وهو بمثابة لوثة في صورة الأب المثالية، أخذت أشيدها رغما عني، لأنه غائب غيابا مبرما.»⁽²⁾ والذي جعلها تعيش في صمت عميق كسرته الكاتبة بفعل الكتابة هذا الفعل الذي أتاح لها الغوص في الماضي ومحاولة فهم ووعي الأسباب الرئيسية التي أدت إلى فشلها في حياتها تقول: «أعود إلى هذه الأنا، أنا الماضي المبددة

: عزيز عظمة وآخرون، مفاهيم عالمية للهوية، تر عبد القادر قنيني، الدار البيضاء المغرب، ط2005، ص1، ص68.¹

: آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص60.²

التي تحيا مرة أخرى في ذاكرتي والتي بانفتاحها على الكتابة تحت على الوشاية بالذات بدل التكرار أو النسيان!«⁽¹⁾.

1/ الانتماء والقومية:

إن الهوية في مفهومها الشامل قيمة جوهرية في حياة الإنسان بوصفه كائناً ثقافياً قبل أن يكون كائناً بيولوجياً، وجوهر الهوية الانتماء، وهو الذي به يفارق الإنسان آدميته الغريزية مرتقياً إلى آدميته المتسامية. والانتماء مضمون وإبلاغ، فأما المضمون فعقيدة تكفل له الإيمان وتقويه شرّ الضياع في الوجود، وأما الإبلاغ فلغة تؤمن له التواصل الإنساني الخلاق»

إن الإحساس بالانتماء عنصر مهم وفعال لجعل الشخص ينشأ نشأة سليمة ويستطيع بناء شخصيته بشكل جيد مما يسهل عليه اتخاذ قرارات صائبة وصحيحة في حياته لكن عندما يفقد إلى هذا العنصر ينشأ هذا الشخص نشأة متذبذبة وهشة ومعرضة لأي شرخ وسقوط، تقول الكاتبة: «لنتحاشى التيه: حلقات من حرير أم حلقات الذات؟ أم حلقات على الذات - بشرة حية تتمحي شيئاً فشيئاً تحت هذه الأوشام والخدشات؟»⁽²⁾، وهذا التيه جعل المرأة تنشأ في بيئة هشة تعتمد بالدرجة الأولى على أساليب القمع والمنع والسجن كأنها مخلوق لا عقل له ويفتقد لأدنى معايير التفكير المنطقي ويمثل قلماً كبيراً يشغل تفكير كل أب، ويحتاج للصداية دائماً، فيجعل المرأة تتربى في أسرة كل همّ هذا الأخير هو فرض سيطرته وتشديد رقابته عليها وإعطاء أوامره دون أي تبرير منطقي ويتمثل هذا في قولها بشرة حية تتمحي شيئاً فشيئاً تحت هذه الأوشام والخدشات وتقصد بالأوشام تلك الأحداث التي بقيت عالقة في ذهن المرأة وسببت لها تشوهات في شخصيتها للأبد، وهذا ما حاولت الكاتبة طرحه عندما أوردت في روايتها قصة الدّراجة تقول الساردة: «شمة مشهد حصل في فناء العمارة الخاصة بالمدرسين ظلّ عالقا في ذهني كحرقه، وهو بمثابة لوثة في صورة الأب المثالية، أخذت أشيدها رغماً عني، لأنه غائب غياباً مبرماً... غير أنني لما أردت بدوري - وعمرى أربع أو خمس سنوات، لا أتذكر بالضبط - أن أتعلّم ركوب الدراجة، فإن شيئاً ما من هذا الماضي يدور في ذاكرتي ويمسي جرحاً وخدشاً»⁽³⁾ هذا المشهد الذي بقي عالقا في ذهن الكاتبة وهي بنت الأربع سنوات أثر على شخصيتها وأحدث شرخاً عميقاً فيها: «في هذا اليوم، وبمساعدة ابن المدرّسة، وهي أرملة، وأقرب جارة لنا ركبت دراجة، وبعد محاولات محتشمة، أحسست أنني قادرة بمفردي على

المصدر نفسه، ص 528¹.

المصدر نفسه، ص 528².

: آسيا جبار بوابة الذكريات، ص 60³.

الاحتفاظ بتوازي. لا أتذكر بأني سقطت أو شعرت بالخوف. حقا، كان قلبي يخفق، لكنني سأكون مستقلة وقريبا سأقوم كغيري بجولة أولا في هذا الفناء ثم عبر القرية حرة طليقة...ولكنني أحلم: لا شك أنني سقطت مرة أولى. فأعود الركوب، فأنا مصممة عنيدة...⁽¹⁾ وهي التي كانت تظن أنها مختلفة عن باقي بنات الضفة الجنوبية وأنها تشبه الفرنسيات في علاقتها بأبيها تقول: «احتضنتني فتاة وهي تضحك، وكانت قبلاتها تخفقني. فتاة أخرى جالسة القرفصاء تداعب فستاني القصير أو تنورتني الأسكتلندية. إن هندامها كهندام فرنسية صغيرة! صرخت متهمكة أو حاسدة، صوب أُمي المبتسمة الصامتة....-أجل، ألحت فتاة ثالثة، بلهجة متشنجة، يبدو أن أباه يشتري لها دمي ... مختلفة عن تلك التي نصنعها بأيدينا بخرق وعيدان خشبية، كلا... (تحلم ويحدوها الحنين) إنها دمي حقيقية كما عند الفرنسيين!....أما أنا الصامتة في هذا الفناء الذي يضج بأصوات هؤلاء النساء من مختلف الأعمار، اللواتي لا يخرجن إلا ملفوفات من الرأس إلى أخصص الأقدام، أحس فجأة-وقد هالتي هذه الملاحظة-((بأنني ابنة أبي)). ترى هل هذا شكل من أشكال الإقصاء-أم الحضوة؟»⁽²⁾ وبهذا كانت تعد انتماءها فرنسا بامتياز ساعدها في ترسيخ هذه الفكرة في ذهنها أبوها عندما جعلها تدرس في مدرسة فرنسية وتصادق فتيات فرنسيات وتتعلم اللغة الفرنسية، لكن هذا الأب قد خيب ظنها وجعلها تعيد تفكيرها في جميع معتقداتها عند حادثة الدراجة، هذا الموقف الذي لم تستوعبه الكاتبة وهي بعمر الخمس سنوات وبقي عالقا في ذاكرتها كوشم لم تستطع إدراكه إلا بعد مسيرة عمر تقول: «في اللحظات التي تلت، كانت حالة من الغيم المتواصل بالنسبة إلي، من اللاواقعية. أخالني قلت لنفسي لأول مرة ((هل أبي لا يزال هو أبي؟ ربما أصبح فجأة شخصا آخر؟)) لم احتفظ من جملته النابضة، مثل سهم نحاسي يتردد صداه بيننا، إلا بهذا اللفظ العربي؟ ((ساقها)) ماذا يعني هذا يا ترى: جملته نبرته، غضبه كونه لأول مرة يهجم على ((غرفتيهما))، هذا العرين؟ خيل لي أن أبي أجبر على شيء غامض فجأة....أظن أنني حاولت محو هذا الصداق بل وحتى الإحساس بأن شخصا آخر مجهولا قد دلف وتقمص شخص أبي....كائن لا هوية له مزود بصوت جديد قصد إطلاق صرخة غير مسيطر عليها، هذا الغضب الأعمى وهذه النبوة التي كانت مع ذلك تشعرني بالخل؟»⁽³⁾ وتفقد الساردة (فاطمة) استقرارها عندما يفقد الأب هويته بحيث كانت تستمد قوتها وثقتها من الصورة المثالية التي راحت تشيدها لأبيها خلال مراحل طفولتها، لكن تبدأ هذه الصورة في التشوه عندما يبدأ أبوها بفرض سلطته وهيمته عليها، وبمحاولة طمس معالم جسدها الذي يمثل ذاتها وحضورها الفعلي في الواقع، وبهذا

آسيا جبار: بوابة الذكريات، ص 60.¹

نفس المصدر، ص 20-21.²

المصدر نفسه، ص 64.³

يكشف النظام الأبوي عن سيرورة تاريخية معقدة لطبيعة العبودية، ويؤرخ لأصول الهيمنة والقمع الجماعي للرجال على النساء، كما يعبر عن صراع وجودي متجذر بين الرجل والمرأة يبدأ من عمق التأويل الأحادي والسلطوي الذي عزز من أشكال السلطة التي تجند كل مؤسساتها ونخبها دون حرج لاستنساخ نموذج هووي جاهز لأنفسنا يقصينا بقدر ما يدمجنا، إنه نموذج هووي مصطنع وموجه يحجب العقل عن أداء دوره المفروض بكل حيادية، وإقصاء ممنهج يهدر حقنا في حرية الانتماء ويعيد في كل مرة إنتاج نوع خاص من خضوع الآخر ليضمن بقاءه في صفته التابع كجنس ثاني باسم معايير مضرّة ومدعية؛ كالجماعة، والأعراف، والتقاليد، وأخطرها المعرفة بتواطئ مع السلطة.

كما نجد أنها تفقد إحساسها بالانتماء عندما يعاملها من هم من صفّها (ذويها) بالعدائية المفرطة عندما يكتشفون أنها تنتمي إليهم وتتكلم لغتهم تقول: «عدائيون، هذه حال من هم من صفك! لا مجال إذن للكشف عن نفسك أمامهم: والحال إنك كنت مكشوفة!»⁽¹⁾ عندما يرونها بدون حايك تتجول في شوارع الجزائر العاصمة فتضطر إلى تغيير انتمائها نحو الطائفة الثانية (الأوربية) تقول: «ولحسن الحظ أنك استوعبت هذه الحقيقة توا: هؤلاء الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين سبع سنين وسبعين سنة يحترمونك، وحتى وإن ابتسموا فلأنهم يعتقدون أنك أجنبية أو عابرة سبيل أو من الطائفة المقابلة. ولكن أن يعرفوا بأنك من ((ذويهم)) ومتحررة، فهذا غير معقول في نظرهم.»⁽²⁾ وهذا التحرر قد يجعلهم حتى يشككون في أخلاقها وتصبح فتاة مشبوهة وهذا ما تؤكد بقولها: «وكأنك بفعل تطورك خارجا، تصبحين مشبوهة! خلف ظهرك، يسود الشك في أخلاقك.»⁽³⁾ وبهذا تفقد الساردة (فاطمة) انتماءها وتتشتت هويتها بين حبها لذويها وكرهها لمعتقداتهم، فتجد حرجا بالغا في مقاومة التصورات الاجتماعية غير المحصنة التي فرضت عليها قصرا بسبب طبيعة التفكير الاجتماعي، وما يمتلكه من صفات خاصة تجعله تفكيرا استعلائيا بامتياز، فالحقيقة النصف ظاهرة للعيان أن القوانين التي تضبط التفكير الاجتماعي لا تعترف بتفكير الفرد كوعي قائم بذاته لديه تصورات الخاصة وتركيبه يختلف عن تركيب خصوصية الوعي الجمعي، مما يؤدي إلى انعدام الاستقلالية الذاتية.

تحول الشروط الاجتماعية التي يتم تكوينها خارج شعور المرأة كفرد دون التمكن لهذا الكائن من فرض موقعه في الفضاء الاجتماعي، وهي نفسها التي تقودها للتعاطي مع مكونات هويتها بصورة سلبية (كالجسد، الغريزة، فكرة الاختلاف) على نحو مكرر. إن ما تختبره المرأة من فكر موروث استوجب

: آسيا جبار: بوابة الذكريات، ص 396.¹

²: نفس المصدر، ص 398.

: نفس المصدر، ص 398.³

منها حق الرد أو التمرد، «إن الكائن الذي تنتزع منه صفة الجوهر لتلتصق به صفة التبعية والإلحاق لا بد أن يحاول استرجاع سيادته»⁽¹⁾

ج-الدين:

إن الساردة تنتمي إلى أسرة جزائرية مسلمة متشعبة بثقافة إسلامية عربية، وكأي أسرة مسلمة من المجتمع الجزائري ترسل أولادها إلى الكتاب لحفظ القرآن الكريم، وكانت (فاطمة) تفعل ذلك بمعية الأب (الطاهر) الذي كان يأخذها معه لحفظ القرآن مرتين أو ثلاثا كل أسبوع تقول: «البقال فخور جدا بإعارة الجزء الخلفي من دكانه لشيخ الكتاب وهو يرفل في هيئة الأسياد...:أذهب إلى هذه المدرسة المرتجلة المؤقتة مرتين أو ثلاثا في الأسبوع.»⁽²⁾ هذه الفتاة التي نشأت نشأة دينية ستبدأ بالانسلاخ من هذه المقومات الإسلامية وتتخذ من النموذج الغربي قدوة لها فها هي بعد تعرفها على جاكين في الداخلية والتي تروي لها قصصها الصيفية وهي مصحوبة تقول: «كنت أسأل جاكين حين تهمس في أذني كلمة ((مصحوبة)): -كل واحدة مصحوبة بمن؟ كانت تجيب مزهوة : -كل واحدة رفقة صديقها!»⁽³⁾ وبهذا يصبح الفرق في نظرها بين الفتاة الجزائرية المسلمة والفتاة الفرنسية هو كون الفرنسية مصحوبة وبمرأى من أمها تقول: «نحن المسلمات بالداخلية حين نقوم بجدد خيابتنا بمقارنة حياتنا بحياة المراهقات الفرنسيات، فإن هذه الكلمة هي التي كانت تصنع الفارق بين وضعنا ووضعهن.»⁽⁴⁾ وبما أن هذه الكلمة هي التي تصنع الفرق في نظر الساردة (فاطمة) فخروج المسلمة مصحوبة سيجعلها تفقد انتماءها الديني للإسلام، تقول: «بينما ها أنا أمشي - أول جرأة لي في سن الخامسة عشر - هكذا ((مصحوبة)) بدوري أنا المسلمة بشاب مجهول ولكنه على الأقل من جماعتي، وهذا رغم الراحة المزيفة التي كنت أبدوها والتي أصبحت ذات جرأة خطيرة حقا.»⁽⁵⁾ هذه الجرأة الخطيرة التي حركها العصيان والحظر الذي مارسه الأب عليها جعلها تنتشت بين عالمين وضفتين، عالم غربي متحرر لكن يحترمه (ذويها)، وعالم مغلق وعدائي حتى على أهله وذويه كل هذا أسهم في فقدانها لتمامسها النفسي واضطراب شخصيتها على مستوى القيم الأخلاقية والدينية.

سيمون دي بوفوار: الجنس الآخر، تر: ندى حداد، مرا/إيمان المغربي، الأهلية للنشر، ص 05.1

: آسيا جبار: بوابة الذكريات، ص 111.2

: المصدر نفسه، ص 354.3

: المصدر نفسه، ص 255.4

: المصدر نفسه، ص 256.5

كما نلاحظ أن الأب لم يكن شخصا متشددا في الدين ولكنه كأي رجل جزائري كان متعلق بالعادات والتقاليد أكثر من تعلقه بالدين الإسلامي، وهذا ما توضحه الكاتبة عندما أوردت قضية الحايك حين طرحت صورة الأم الشابة التي لا تتجاوز من العمر 19 سنة، والتي تحتاج ككل امرأة شابة في الجزائر للولوج إلى الخارج لقطعة من القماش (الحايك) ملفوفة على جسدها بحيث لا يمكن للمرء أن يرى سوى عرقوبها أو عينيها أعلى (العبار) الصغير المصنوع من فتل الحرير على أنفها كما تحتاج إلى طفل يقودها كي تزور قريبا لها في الفترة المسائية ليحقق مبدأ الوصايا عليها، وإن كان هو من يحتاج إلى ذلك تقول: «إن امرأة شابة ملفوفة تماما في حايك من الساتان الأبيض بحاجة إلى طفل كي تزور قريبا في الفترة ما بعد الزوال في المدينة الصغيرة... هذه المرأة التي أرافق تضع على أنفها مثلثا من فتل الحرير جعل عينيها حرتين - إنه امتياز نساء هذا الميناء...»⁽¹⁾ لكن هذه المرأة ستتحول وتتخلّى عن الحايك، وتتخذ من الرداء الفرنسي لباسا لها كأنها امرأة فرنسية فتظهر ساقها وشعرها، ولا يبدي هذا الزوج أي ردّة فعل حيال هذا التحول، وهذا يؤكد أنه ليس رجلا متدينا بل متعلقا بعادات وتقاليد فقط تنص على أن المرأة الجزائرية امرأة محظورة على الشارع، تقول: «أمي التي كانت تتأهب للاحتفال بست وثلثين سنة من عمرها، تحولت في بضعة أشهر إلى غريبة ذات أناقة خفية: دائما معتنية بهندامها وشعرها، وبفضل فخرها الخفي وليس الغرور، ظفرت باستقلاليتها بوصفها حضرية تمر دون أن يتقطن لها بمشيتها الأوروبية المفاجئة في حيننا حيث يغدو وروح الشعب البسيط حول سوق كبيرة. وهكذا تمّ نهائيا طيّ الحايك الجميل الحريري الذي كان يخفيها في السابق بالقرية عن أنظار الجميع، والذي كان يلزمها حتى في السيارة التي كانت تقلنا خلال العطلة بشرشال.»⁽²⁾

وهذا التحول الذي شهدته الأم حتى في المشية التي أصبحت مشية أوروبية بامتياز، يؤكد أن الأب لم يكن دافعه الحقيقي هو ظهور سيقانها ولم يكن دافعه أيضا ديني بل هو دافع ورثه ككل الرجال الجزائريين من أجداده حتى وإن كان رجلا مثقفا ومنفتحاً على الآخر الغربي لم يمنعه هذا من حمل هذا الإرث، وسبب منعها من ركوب الدراجة كان خوفا عليها من أن تفقد عزريتها وهي تتعلم ركوبها، تبوح آسيا جبار في موضع آخر عن هوس مجتمعنا تقول: «يستدعيني إلى محكمة الأجداد المختصة في المحظورات ضد النساء ذوات سن الخامسة - أو ثلاث أو أربع سنوات - إلى غاية سن البلوغ وإلى غاية ليلة الزفاف، قصد التنازل عن هذا الحق الثقيل جدا لصالح الزوج الأول أو الثاني إن اقتضى الأمر، ولكن الأب - كل أب - يمكنه تنفس الصعداء أخيرا، والتخلص من عبء واجب التخفي البذيء والحالك -

: آسيا جبار: بوابة الذكريات، ص 14.¹

: المصدر نفسه، ص 388.²

وفي حالي هذه: ساقاي الصغيرتان الراغبتان في تحريك عجلات الدراجة.⁽¹⁾ من خلال هذا المقطع نجد أن الكاتبة كانت توضح كيف أن الأب و-كل أب- لا يهتم سوى عذرية ابنته وهوسه الدائم في بقائها بكرا حتى تنتقل إلى بيت زوجها أو إلى القبر ويرتاح هو من هذا الثقل. كما تصرح أيضا أنه السبب الحقيقي لمنعها من ركوب الدراجة وليس انكشاف ساقها الصغيرتين.

د-اللغة:

تعدّ اللغة جزءا من المكون الثقافي الذي لا يمكن إغفاله في تحديد معالم الهوية الوطنية، بل يذهب الكثير من الدارسين إلى عدّها ذلك المعمار الخفي الذي يتشيد به الفكر والمنظار الذي يرى الفرد من خلاله العالم من حوله، وفي هذا الصدد يقول الفيلسوف الألماني هايدغر heidegger: «إنّ لغتي هي مسكني، هي موطني ومستقري، هي حدود عالمي الحميم ومعالمه وتضاريسه ومن نوافذها ومن خلال عيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الواسع.»⁽²⁾

ولقد توسلت الكاتبة آسيا جبار اللغة الفرنسية بوصفها لغة للكتابة فعلا محايدا في كتاباتها الأولى بالنظر إلى كونها اللغة الوحيدة التي تتقنها، إذ تقول: "هذه اللغة أصبحت أرضي الوحيدة، حتى وإن خيمت على هوامشها، وكأنني رحلت عارية من موطني، لقد مثلت معطفي الوحيد" ولقد كان الفضل لأبيها في اكتسابها حين اختار لها ومنذ الصبا مزاولة تعليمها في المدرسة الفرنسية، لذا مثلت بالنسبة لها لغة الأب، وفي المقابل ثمة لغة أخرى انزوت إلى الظل هي لغة الأم المنهزمة الحاملة للثقافة في بعدها الشفوي والتي تنفتح على فضاءات الحريم والذاكرة النسوية، وصفة الدونية التي التصقت باللغة العربية، تقول: «أتذكر سنواتي الأولى التي قضيتها في التسكع دون انقطاع في العاصمة، وتلك النشوة التي كانت تستولي عليّ آنذاك: كنت أتقدم خافضة العينين، ويحمر وجهي حين يعتقد أنني أوروبية، ومرّد ذلك إلى قلّة المراهقات اللواتي كن يمشين لمجرد المشي.... لا سيما أنه كان يستحسن عدم التحدث باللغة الأم في الخارج، كما لا ينبغي استعمال هذه اللغة الحميمة مع شخص عربي: فسرعان ما ينبري يفحصك، فإن الاحترام الذي يكنه للأوروبية أيا كان سنّها سيتحول إلى عدوانية إزاء فتاة شابة من مجموعته. سيملق فيك ولسان حاله يقول: ((الفاجرة! دون حايك وحتى الشعر غير مخفي!)) عدائيون، هذه حال من هم من صفك! لا مجال إذن للكشف عن نفسك أمامهم: والحال إنك مكشوفة! ولكن أيضا ((مقنعة)) نعم، مقنعة

: المصدر نفسه، ص 72.¹

²: عبد السلام المسدي: الهوية العربية والأمن اللغوي دراسة وتوثيق، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2014، ص 81.

باللغة الأجنبية! بينما في الخارج، تخونك لغتك الأم، وتشي بك، بل يكاد يشار إليك بالبنان!..»⁽¹⁾ وهي بهذا تصرح أن اللغة الأم لم تتصفها وأن ذويها عدائيون إن هي تكلمت بهذه اللغة أمامهم بل ستصبح في نظرهم امرأة فاجرة وساقطة لهذا اتخذت اللغة الفرنسية بدل (الحايك) كقناع لها وستار يحميها من النظرة الدونية والاحتقار الذي ستعرض له مع لغتها الأم تقول أيضا: "في الشارع، بينما يمكنني ترك جسدي يتسكع حرا طليقا، يجب علي التزام الصمت أو التحدث بالفرنسية أو الإنجليزية وحتى الصينية إن استطعت، ولكن يجب علي أن لا أظهر هذه اللغة الأولى أمام الملأ، لغة العديد من النساء اللواتي لا يزلن سجينات" وبهذا تربط الكاتبة اللغة العربية بالسجن والقمع والاحتقار ولهذا تلجأ إلى الاحتماء بلغة الآخر لتتمتع بالحرية التي لازمت نساء الضفة الشمالية من البحر المتوسط وهي بهذا تفقد انتماءها لهويتها الجزائرية مع أنها كانت تعشق اللغة العربية، وهذا العشق الذي ورثته من أمها التي كانت تتقن اللغة العربية فقط وتحب الاستماع إلى الأغاني الأندلسية في المذياع وتدون كلماتها وتقوم بحفظها تقول: «الشابة ذات الأربع والعشرين سنة- التي لا تحسن بعد قراءة اللغة الفرنسية وإنما العربية فقط- تتصور مدى العقبات والأعداء التي تقف في وجه صغيرتها، في مدرست (هم)...إنها تتذكر (أنا أتذكر) أن أباه كان يطالع فيما بعد جريدته. أما الأم فكانت تشعل المذياع- ((إذاعة الجزائر، القناة العربية))- بوصفها مستمعة مواظبة للموسيقى العاطفية المصرية أحيانا وللأغاني المصوغة بالدارجة الجزائرية...هي نفسها كانت تحب كثيرا أداء الأغاني الأندلسية. لقد دونت كلماتها المصوغة بالعربية الفصحى الراقية بمفردها، علما بأنها الحضرية الوحيدة بالقرية والتي كانت تشكو من الوحدة جراء انزوائها في شقة المدرسين هذه»⁽²⁾. فهذا الحب والشغف باللغة العربية والشعر العربي قد توارثته من أمها التي كانت تعشق سماع الأغاني الأندلسية وتحرص على تدوينها وحفظها.

تطرح مسألة اللغة إشكالية الهوية من بابها الأوسع، إذ شكلت هاجسا لدى العديد من الأدباء والمفكرين الذين وجدوا أنفسهم مشتتين بين ضفتين مختلفتين ليكون السؤال المطروح: هل يكون الانتماء الحقيقي للأرض أم للغة التي نبدع بها؟ تقول: «ولكن أن يعرفوا بأنك من "ذوهم" ومتحررة، فهذا غير معقول في نظرهم: في حين أنت وجه الفجر ولا يدركون ذلك!»⁽³⁾ وبعبارة أخرى: ما الذي يبقى حين نكتب داخل لغة الآخر، ألا يعد هذا فقداننا مضاعفا؟ في هذا الصدد نستحضر مقولة جاك دريدا jacques Derrida: «نعم أنا لا أملك إلا لغة واحدة ومع ذلك فهي ليست لغتي».

¹: آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 396.

المصدر نفسه، ص 398.²

المصدر نفسه، ص 398³

إن الكتابة عند آسيا جبار هي سعي للانعتاق والتحرر وكسر جدران الصمت، وما كان ليتأتى لها ذلك لو أنها اختارت الكتابة باللغة الأم. وبهذا نجد أن هوية الكاتبة متشظية منقسمة بين لغة الأنا الأم المسلوقة للحرية والمسجونة في ذهنية المجتمع والثقافة ولغة الآخر المستعمر المتحررة والميتة في الوقت نفسه، هي ضائعة بين صفتين.

ج/اسم المؤلف:

يعد اسم الكاتب من بين العناصر المهمة، فلا يمكننا تجاهله أو تجاوزه لأنه العلامة الفارقة بين كتاب وآخر، فيه تثبت هوية الكتاب لصاحبه ويحقق الملكية الأدبية والفكرية لعمله، دون النظر إلى الاسم إذا كان حقيقيا أو مستعارا، واسم المؤلف عنصرا مهما وضروريا يستوجب على المتلقي مراعاته والحرص على ظهوره في اللوحة التشكيلية للرواية.

وبالرجوع إلى الرواية المدروسة نجد أن الكاتبة آسيا جبار اسمها الحقيقي فاطمة الزهراء املحايين وقد دونت اسمها المستعار الذي كانت تستعمله في مسارها الأدبي والذي يتكون من اسمين أو بالأصح رمزين، الأول هو اسم يخصها والثاني يخص والدها، واختيارها للاسم لم يكن مصادفة بل يحمل في طياته العديد من التفسيرات والدلالات فاسم (آسيا) يرجع إلى الأصول اليونانية حيث يشير معناه في معجم المعاني اللغوية إلى قارة آسيا وهناك من يشرح معناه على أنه سطوع نور الشمس على كوكب الأرض ومنهم من يشير إلى أنه يدل على القوة والأرض ذات الجذور المتينة، أما في معجم اللغة فيدل معنى هذا الاسم على حسن أخلاق الفتاة وطيبتها ومواساتها لمن حولها فهو مأخوذ من الفعل آسية والمصدر مواساة، وقد يقصد به الدعامة التي يتم الاستناد عليها لقوتها. كما له دلالة دينية اقتبسته الكاتبة من القرآن الكريم، وتعدّ من تسمّت باسم آسيا من السيدات هي زوجة فرعون "آسيا بنت مزاحم" وهي التي آمنت بنبي الله موسى، وقال رسول الله ﷺ: (أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَآسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ) صحيح البخاري ومسلم، و(جبار) هو اسم من أسماء الله الحسنى، وهو صيغة مبالغة من جَبَرَ التي تعني: قاهر، متسلط، متكبر، متعالٍ عن قبول الحق، لا يرى لأحد عليه حقًا، مستبدّ وتدل على فرعون الذي طغى وتجبر يقول الله عز وجل في محكم تنزيله: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنُذِلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾⁽¹⁾، وهي توحى من خلال هذه المعاني أن أبيها كان إنسان متسلط في آرائه وأنه ككل الجزائريين لم يكن يحاور ابنته في الأمور التي تخصها بل كان يفرض رأيه عليها فرضا دون نقاش مسبق تقول: «لم قررت، في الدخول

: سورة المائدة: الآية 22.

المدرسي التالي، قبول التراسل مع الطالب المجهول؟ كنت اتخذت هذا القرار ببرودة، من باب الرد على ((الظلم)) (أتذكر أنني نطقت بهذه الكلمة بحماس) نعم حقا للرد على ظلم أبي إزائي... كنتها، ((المحمية)) لا من قبل التمييز الجنسي للجماعة، وجهلي الذي تجلى في الاعتقال العريق لأمهاتنا في ذلك العهد⁽¹⁾، فبالرغم من كون الأب إنسانا متعلما وواعيا ودرس ودرّس في المدارس الفرنسية إلا أنه لم يتجرد من عاداته وتقاليد الموروثة أبا عن جد.

ومن خلال كلّ ما سبق نجد أن الكاتبة آسيا جبار قد انشطرت هويتها في ظل الواقع المتأزم للجزائر خلال فترة الاستعمار، حيث وجدت نفسها منقسمة بين عالمين ولغتين: عالم ذويها المنغلق على نفسه، المهمش في أرضه الفاقد لكل حقوقه والمنبهر بالآخر المستعمر والحاقد عليه في الوقت ذاته، وعالم منفتح متحرر من كل المقومات الدينية، والذي يحترمه ذويها ويهابه رغم انكشافه أمامه.

الخاتمة:

الكتابة هي ذلك الفعل الوجودي المترامي الأطراف، هي نظرة إلى العالم وطريقة للحضور فيه، واختيار المرأة لعالم الكتابة وبالخصوص الرواية-هي كونها موجودة وحاضرة بالفعل وتستطيع بفضلها أن تحقق نوعا من الخلاص والحرية عبر مساحة البياض.

إنّ الكتابة النسائية هي كتابة رمزية تستدعي المتراكم عبر الزمن فتحدث في اللغة شفافية فيغدو بذلك عالمها الروائي مميزا بهندسة كتابتها الواعية واللاواعية إنها تنطلق من لغة الحواس في شاعرية لتوحي بمدى العلاقة بينها وبين الكتابة كقيمة تجسد فعل مواجهة الاحتفاء بالذات وإثبات الحضور، وإدانة الإقصاء والتهميش بكل أنواعه.

ولقد توصلنا إلى جملة من النتائج، كان أهمها ما نوردته في النقاط التالية:

-خصوصية العنونة النسائية؛ فهي تروم بتوظيفه إلى اللعب اللغوي الذي يكشف عن نتوءات أنثوية في متون الرواية وتبني على الوعي واللاوعي للكاتبة، وتوحي بثقافة نسقية تهندس فضاء الرواية النسائية بحيث تنحاز إلى الإغراء والتشويق والغموض.

-اخترقت المرأة الكاتبة النظم الاجتماعية السائدة للكشف عن العلاقات الإنسانية والاجتماعية في إطار إستراتيجية تعرية المسكوت لتواجه الآخر بأزمته ولتوحي بمدى تهميشه لها وفق سطوة إيديولوجية ظلّ يمارسها عليها.

: آسيا جبار، نفس المصدر، ص 398¹.

-تتخذ المرأة المبدعة من الكتابة وسيلة لحل تناقضاتها مع الرجل والمجتمع عامة وهي تسعى في نهاية الكتابة للبحث عن هويتها الأنثوية في مقابل الآخر الذي حقق ذاته تاريخيا واجتماعيا وايدولوجيا.
-تُكتب الرواية النسائية وفق انجرافات الأنوثة لتعرية المسكوت عنه إنها كتابة الماضي المأساوي دون إحداث قطيعة مع الراهن وتحدياته في نصوصها.

قائمة المراجع:

- (1) إبراهيم عبد الرحمن إبراهيمي: عتبات النصفي زاوية الثلاثة لمحمد البشير الإبراهيمي دراسة تداولية مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، العدد 1، يونيو، 2013، ص 32.
- (2) عبد الحق بالعابد: عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، دار العربية للعلوم، ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2008، ص 67.
- (3) الفيروزآبادي، قاموس المحيط، ط 2، المطبعة الحسينية، 1344هـ، ص 122.
- (4) الرازي، مختار الصحاح، دار التنوير العربي، بيروت، ب ت، ص 192¹.
- (5) إبراهيم أنيس، وآخرون، المعجم الوسيط، ط 4، 2004، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، 632-633.
- (6) محمد فكري الجزار: العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ط، 1998، ص 21-22.
- (7) نعيمة فرطاس: سيميائية العنوان عند الطاهر وطار رواية الولي يعود إلى مقامه الزكي أنموذجا، مجلة الثقافة، القدس، العدد 21، أكتوبر، 2009، ص 85.
- (8) ياسمة دموش: عتبات النص، مجلة علامات، جدة، المجلد 16، مايو، 2007، ص 39.
- (9) محمد عبد الوهاب: ثريا النص، مدخل لدراسة العنوان القصصي//10 (الموسوعة الصغيرة) 396، دار الشؤون الثقافية العامة، ط 1، بغداد، 199.
- (10) عبد القادر رحيم: علم العنوان دراسة تطبيقية، دار التكوين للتأليف والترجمة والتوزيع، ط 1، دمشق، سوريا، 2010، ص 45.
- (11) آسيا جبار: بوابة الذكريات، تر محمد يحياتن، سيديا وزارة الثقافة، 2007 ص 55-56.
- (12) محمد محمد داود، معجم التعبير الاصطلاحي في العربية المعاصرة، دار غريب للطباعة، القاهرة، مصر، د.ط، ص 38.
- (13) انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة هوى.
- (14) الجرجاني علي بن محمد، التعريفات، بيروت، دار الكتاب اللبناني، الطبعة 1، الصفحة 278.
- (15) الموسوعة الفلسفية العربية، بيروت، معهد الإنماء العربي، مادة الهوية.
- (16) عزيز عظمة وآخرون، مفاهيم عالمية للهوية، تر عبد القادر قيني، الدار البيضاء المغرب، ط 2005، ص 1، ص 68.
- (17) سيمون دي بوفوار: الجنس الآخر، تر: ندى حداد، مرا/إيمان المغربي، الأهلية للنشر، ص 105¹.
- (18) عبد السلام المسدي: الهوية العربية والأمن اللغوي دراسة وتوثيق، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط 1، 2014، ص 81.
- (19) سورة المائدة: الآية 22.